الفينيقيون

منقولة عن الافرنجية

« صور وقرطاجنة »

وصفها فينيقية من بقاع الارض الضيقة طولها خمسون فرسخاً وعرضها من ثمانية فراسخ الى عشرة وهي بين بحر سورية وأعلى سلسلة في جبل لبنان. بل هي على التحقيق عبارة عن سلاسل اودية ضيقة ومجارٍ حرجة متخللة بين هضاب وعرة ممتدة الى البحر ومسايل من الثلوج . تعبث بها العواصف الى آخر الربيع أما في الصيف فينضب ماؤها إلا ما خزن منه في الآبار والصهاريج. ولقد كسيت جبال هذه الناحية بالاشجار فكان في القمم أرز لبنان المشهور وفي المنحدرات الصنوبر والسرو وفي السفوح اشجار النخيل بالغة شاطيء البحر وفي الاودية ينمو الزيتون والكرم والتين والرمان

مدنها — تتألف عن بعد على طول الشاطيء الصخري رؤوس من البحر او جزر منه تكون منها مرافئ طبيعية ففي هذه الموانى أقام الفينيقيون مدنهم. فقامت صور وارواد في جزيرة يزدحم فيها السكان في المنازل وكانت ذات طبقات ست وسبع وثمان ويجلبون الماء لشفاههم في القوارب . أما مدينة جبيل وبيروت وصيدا فكانت في اليبس. ولم تكن أرض هذه البلاد لتقوم باود هذا العدد الدثر من الناس ولذلك مال الفينيقيون الى الملاحة والتجارة .

الخرائب الفينيقية — لم يحفظ عن الفينيقيين كتاب فقد ضاعت حتى كتبهم المقدسة . ولقد جرى الحفر في مواضع مدنهم ولكن الخرائب على ما قال العالم المندوب الى ذلك لم تسلم إلا في البلاد المهملة المتروكة . على ان السوريين عنوا كثيراً بالخرائب فانتهكوا حرمة القبور واخذوا حلي الموتى

وهدموا العمارات ليستعينوا باحجارها على البناء وحطموا النقوش وذلك لكراهة المسلم الصور المنحوتة بحيث لم يبق اليوم سوى شقيف من الرخام المحطم واحواض ومعاصر نحتت في الصخر وبضعة نواويس من الحجر . اطلال قلما تجدي نفعاً وتأتي العلم بفوائد . وليس ما عرف عن الفينيقيين إلا ما علمناه كتاب اليونان وانبياء اسرائيل

حكومة الفينيقيين — لم تكن فينيقية مملكة قائمة برأسها بل كان لكل مدينة ناحية صغيرة تستقل بها ولها مجالس وملك تحكم نفسها بنفسها وتبعث بمندوبيها الى أعظم مدينة فينيقية لفض المصالح المشتركة وكانت صور محط رحال المندوبين منذ القرن الثالث عشر . واذ لم يكن الفينيقيون أمة حربية خضعوا السطوة جماع الفاتحين من مصريين واشوريين وبابليين وفرس وادوا لهم الجزية عن يد وهم صاغرون .

صور - كانت هذه المدينة منذ القرن الثالث عشر من أهم المدن الفينيقية ضاقت على أهلها فاقيمت اذ ذاك مدينة جديدة قبالتها . ولقد أسس تجار صور مستعمرات في البحر الابيض كله يصيبون الفضة من مناجم اسبانيا وسلع العالم القديم أجمع . دعاهم أشعيا النبي الامراء ووصف حزقيال النبي تلك القوافل التي كانت تأتيهم من كل صوب وأوب وطلب سليمان النبي الى هيرام احد ملوك صور عملة يشغلهم في بناء القصر والمعبد في بيت المقدس .

قرطاجنة — كانت هذه المدينة مستعمرة صور فقاقت هذه بالعظمة وذلك ان الصوريين نبذتهم احدى الثورات فاسسوا مدينة قرطاجنة على شاطيء افريقية بالقرب من تونس بعثتهم على ذلك امرأة اسمها ايليسار ونحن ندعوها ديدون (الفارة) . ويحكى ان سكان البلاد ابوا ان يبيعوها إلا مسافة تكفي

لتغطية جلد ثور فقصلت جلد الثور سيوراً رقيقة بحيث اقتضت مكاناً واسعاً يستوعبها فبنت القلعة اذ ذاك . ولقد اتسمت قرطاجنة لموقعها في منتصف البحر الرومي ولان فيها مرفأين فاقامت هي أيضاً مستعمرات وفتحت فتوحاً حتى آل امرها الى ان حكمت شاطيء افريقية باجمعه واسبانيا وسردينيا وكان لها في كل مكان مكاتب لتجارتها ورعايا يؤدون لها الجزية

الجيش القرطاجني — اقتضى لقرطاجنة ان تدرب لها جيشاً لتصون مكاتبها التجارية من حيف الوطنيين وتربأ برعاياها عن الانتقاض . ومن ثم كانت حياة القرطاجني ثمينة لا يخاطر بها إلا عند الضرورة . آثرت قرطاجنة اكتراء الجند فجندت لها جنداً من البربر سكان بلادها ومن منشرذي كل صقع وناحية فصارت صبغة جيشها مبرقشة ملونة يتكلم اللغات كلها ويدين بالاديان كافة . ولكل جندي بزته واسلحته الخاصة به تخالف بزة رصيفه واسلحته . فترى فيهم النوميديين يلبسون جلد الاسد يتخذونه وطاء كما يتخذونه غطاء يركبون خيلاً سريعة صغيرة بدون نظام ويطلقون القوس وخيولهم تعدو عدواً . كما كنت ترى فيهم الليبيين وجلودهم سوداء مسلحين بحراب . وطائفة من الاسبريين في اسبانيا لباسهم بياض مزين بحمرة وسلاحهم سيف طويل محدد . وغاليين عراة الى الزنار يحملون تروساً كبيرة وسيفاً محدباً يمسكونه بكلتا يديهم . وجماعة من البالياريين مدربين من طفوليتهم على رمي الحجارة او كرات الرصاص بالمقاليع . أما القواد فكانوا قرطاجنيين تخافهم الحكومة فتراقبهم عن أمم وربما صلبتهم اذا غلبوا ولم يحرزوا نصراً مؤزراً

القرطاجنيون — كان في قرطاجنة ملكان والامر والنهي لمجلس الشيوخ وهو مؤلف من أغنى تجار المدينة ولذلك كانت كل قضية ينهى بها الى الحكومة

مسألة تجارية . كره الناس القرطاجنيين لقسوتهم وطمعهم وغدرهم ولما كان لهم أسطول منظم وعندهم مال يستأجرون به جنداً وحكومة باطشة تهيأ لهم توطيد دعائم ملكهم في غرب البحر المتوسط مدة ثلاثة قرون (من القرن السادس الى الثالث) بين ظهراني شعوب بربرية منشقة على نفسها مختلفة كلمتها

الديانة الفينيقية - للفينيقيين والقرطاجنيين دين يشبه الديانة الكلدانية فالرب الذكر ويسمى عندهم بعل هو الشمس والربة الانثى وتدعى بعلت هي القمر . والشمس والقمر في نظر الفينيقيين قوى هائلة تحيي وتميت . ولكل من المدائن الفينيقية ربان . فلصيدا بعل صيدون (الشمس) وعشتروت القمر) ولقرطاجنة بعل عمون وتانيت ولجبيل بعل تموز وباليت . ويختلف اسم الارباب في الاعتبارات ايجاداً وعدماً وهكذا يعبد بعل مثلاً في قرطاجنة باسم مولوش ويعتبر عدماً . وقد تنوب عن هذه الارباب أصنام ولها معابد ومذابح وكهنة يعظمون من شأنهم ويقيمون لهم المآدب والاعياد الحافلة باعتبار كونهم موجدين ويقدمون لهم ضحايا بشرية باعتبار كونهم مخربين وتعبد عشتروت ربة الصيد العظيمة في الغابات المقدسة ويصورونها على شكل هلال القمر والحمامة ويرسم بعل مولوش في قرطاجنة تمثالاً عظيماً من القلز باسطاً ذراعيه ومدليهما واذا ارادوا تسكين غضبه يرفعون على يديه اطفالا تسقط للحال في هاوية من نار . وقد قدم اعيان مدينة قرطاجنة مائتي طفل من اولادهم ضحايا للربة مولوش في خلال حصار اغاثوكل لقرطاجنة

هذا وان تلك الديانة على ما نشأت عليه من الشهوات وسفك الدماء لترهب الشعوب الاخرى ولكنهم يحاكونها ويأتمون بها فكان يذبح اليهود

لبعل على الجبال ويعبد اليونان استارتيه وصيدون باسم افروديت وبل ملقارت من صور تحت اسم هيراكليس

التجارة الفينيقية

اشغال الفينيقيين - عاش الفينيقيون بالتجارة لازدحام أقدامهم في بقعة ضيقة من الارض . ولم يكن لسائر شعوب الشرق من مصريين وكلدانيين واشوريين ولا قبائل الغرب البربرية (الاسبان والغاليين والطليان) عهد بركوب البحار وشق العباب والفينيقيون وحدهم جرأوا في تلك الايام على تجشم البحر فصح ان يدعوا من اجل هذا عملاء تجارة العالم القديم وقادة البيع والشراء يبتاعون من كل شعب سلعه ويتقايضون معه على غلات البلاد الاخرى . تجارة كانت مستحكمة الصلات مع الشرق براً والغرب بحراً

القوافل -- اعتاد الفينيقيون ان يرسلوا في البر قوافل تتجه وجهات ثلاث احداها الى بلاد العرب لتأتي منها بالذهب والعقيق اليماني والبخور والصبر وعطور بلاد العرب واللؤلوء والابازير والعاج والابنوس وريش النعام وقرود الهند. والقافلة الثانية ترحل الى بلاد اشور لتعود منها بانسجة القطن والكتان والحمر والاحجار الكريمة والماء المعطر وحرير الصين . وتقصد القافلة الثالثة انحاء البحر الاسود لتستجلب منها الخيل والرقيق والاواني النحاسية من مصنوعات سكان جبال قافقاسيا « القوقاز »

بحريتهم - بنى الفينيقيون بخشب ارز لبنان المتين قوارب باشرعة ومجاذيف حملوا عليها متاجرهم البحرية وما مست حاجتهم ان يكونوا ابداً على مقربة من الشواطئ في ركوبهم البحر اذ كانوا يتجهون حيثما ارادوا بجعل نجمة القطب قيد نواظرهم وكانوا يستدلون بها على الشمال . ولقد فطر

الفينيقيون على الاستخاف بركوب اليمّ فالفوا بانفسهم في مراكب صغيرة تغدو بهم وتروح في اطراف البحر الرومي بل جرأوا على اجتياز مضيق جبل طارق او كما دعاه القدماء « اعمدة هيركول » فيجتازون البحر المحيط الى شواطئ انكلترا وربما بلغوا بلاد الثروج . سافرت عصابة منهم في خدمة احد ملوك مصر في القرن السابع وجازت البحر الرومي لتطوف حوالى افريقية ثم رجعت على ما قيل بعد ثلث سنين من البحر الاحمر وغادرت قرطاجنة حملة ضربت نحو شاطئ افريقية الى خليج غينة . وقد كتب القائد حانون قصة في هذه الرحلة

البضائع -- كان الفينيقيون يبتاعون محاصيل صناعات الشعوب المتمدنة ويحثون في البلاد المتوحشة عما يقل الظفر به في المشرق من المحاصيل . يصطادون الصدف من شاطئ بلاد اليونان ومنه يستخرجون صباغاً احمر وهو الارجوان . وكانت الانسجة الارجوانية تستعمل عند الاقدمين كافة ملابس للملوك والامراء ويجلبون الفضة التي يستخرجها أهل اسبانيا وسردينيا من مناجمهم وكان القصدير من ضرورياتهم يستعملونه في صنع النحاس الاصفر وهو مركب من نحاس وقصدير لا أثر له في بلاد الشرق ولذا كان الفينيقيون يرحلون في طلبه وينشدونه حتى في شواطئ انكلترا في جزائر القصدير المعروفة بجزائر كاسيتريد . وحيثما حلوا يتخذون الرقيق يبتاعونه تارة كما كان يبتاع النحاس العبيد في ساحل افريقية . اذ الشعوب القديمة كلها كانت تتجر بالرقيق . وينزلون طوراً في احدى السواحل فجأة فيختطفون النساء والاطفال وينقلبون بهم الى بلادهم او يبيعونهم في القاصية . واذا واتتهم الحال ينقلبون قرصاناً ولا يتحامون إطالة يد التعدي على الاغيار

سر اختص به الفينيقيون — لم يقلق الفينيقيون إلا من قيام بحارة لامم الاخرى الى منازعتهم السلطة على البحار ومجاراتهم في الملاحة والاتجار فمن ثم كانوا يكتمون الطريق التي يسلكونها لدى عودتهم من الاقطار النائية ولذا لم يعرف احد في القديم جهة جزائر الكاسيتريد المشهورة التي جلبوا منها القصدير . وقد رأت احدى المراكب بلاد اسبانيا التي كانت لها صلات تجارية مع فينيقية منذ قرون عرضاً بدون تعمل . وكانت قرطاجنة تغرق من تصادفهم من التجار الاجانب في سردينيا او في ناحية جبل طارق حتى ان ربان احدى المراكب أغرق سفينته ذات يوم عند ما رأى سفينة غريبة تطارده مخافة ان تطلع على خطة سيره

مستعمراتها — انشأ الفينيقيون مكاتب تجارية في البلاد التي اتجروا فيها وهي مراكز للبرد حصينة واقعة على شاطئ بحر على مرفأ طبيعي يخرجون اليها بضائعهم وهي في العادة انسجة وثخار وحلي واصنام فيأتي أهل تلك البلاد بغلاتهم فيقايضونهم عليها كما يقايض اليوم تجار الاوربيين زنوج افريقية . تقام أمثال هذه الاسواق في قبرص ومصر وجميع بلاد البحر الرومي التي كانت على ضفتيها مثل اقريطش (كريت) وبلاد اليونان وصقلية وافريقية ومالطة وسردينيا وشواطئ اسبانيا (مالقة وقادس) وربما أقاموها في بلاد الغول (موناكو) وكان اهل البلاد يبنون اكواخهم حول بنايات الفينيقيين فيصبح السوق مدينة ويقتبس السكان ارباب الفينيقيين وقد دامت عبادة ربة على صورة الحمامة حتى بعد ان صارت المدينة يونانية كما في سيتير وارب ملخارت كما في كورنت ورب ذو جبهة ثور يفترس الضحايا البشرية كما في اقريطش

نفوذ الفينيقيين — لم يكن يخطر للفينيقيين شيء على بال لما أسسوا مكاتبهم التجارية إلا الاحتفاظ بمصلحتهم الخاصة ولكن حدث ان نفعت مستعمراتهم التمدن فان برابرة الغرب اخذوا عن أمم الشرق وكانت اكثر منها تمدناً كيفية صنع الانسجة والحلي والماعون وتعلموا محاكاتها . مضى حين من الدهر واليونان لم يعرفوا غير الاواني والحلي والاصنام التي يأتيهم بها الفينيقيون وعلى منوال هذه البضائع نسجوا بعد فان الفينيقيين حملوا من مصر واشور الصناعة والبضائع معاً

الابجدية — حمل الفينيقيون ايضاً الى البلاد التي نزلوها ابجديتهم وحروف الهجاء ولم يخترعوا الخط اذ كان المصريون يعرفون الكتابة قبلهم بقرون وقد استعملوا حروفاً تدل كل منها على صوت كما هو الحال في حروف الافرنج . على ان خطهم كان مشوشاً بعلامات قديمة يدل بعضها على مقطع وآخر على كلمة برمتها . لا جرم انه اقتضى للفينيقيين اذ ذاك طريقة أبسط لكتابة رسائلهم التجارية فاطرحوا العلامات كلها من مقاطع وصور ولم يبقوا سوى اثنين وعشرين حرفاً يدل كل منها على صوت او على لفظ باللسان فاقتبست الشعوب الاخرى هذه الابجدية المؤلفة من اثنين وعشرين حرفاً . فقد كتب اليهود من اليمين الى الشمال كما كتب الفينيقيون وكتب غيرهم كاليونان من الشمال الى اليمين وكلهم بدلوا شكل الحروف إلا قليلاً . والخط الفينيقي على التحقيق أصل الابجديات كلها من يهودي وليسي ويوناني وايتاليكي وايتروسكي وايبيرسكي وربما كان الخط النروجي ايضاً فالفينيقيون هم الذين علموا العالم الكتابة